

جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه^(١). هذا، كما ويجدون متشابهاً مع بعض، فثمار الجنة متشابهة اللذة والطراوة والنضارة، مهما اختلفت ألواناً وطعوماً، فهذا الاختلاف وذلك التشابه مرغوبان حيث اختلف الأكل دوماً والتشابه أحياناً وعدمه أخرى في الألوان والأشكال، كل ذلك رحمة ونعماً هي وكما هنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَعَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَعَيْرَ مُتَشَابِهًا كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾^(٢).

إن في هذا التشابه الظاهري والتنوع الواقعي بين أثمار الجنة والدنيا مفاجأة لطيفة من ناحية، واستئناس بالمألوف من أخرى، كدعابة دائبة تكشف في كل مرة عن جديد وجديد، رزقوا أشباهها في أشباحها يوم الدنيا وهم كانوا - على الأكثر - محرومين عنها^(٣).

(١) الدر المنثور ١: ٣٧ أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: . . وفيه وأخرج جماعة عن أسامة بن زيد قال قال رسول الله ﷺ: ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تزهو وقصر مشيد ونهر مطرد وثمره نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ومقام في أبد في فاكهة دار سليمة وفاكهة خضرة وخيرة ونعمه في محلة عالية بهية. قالوا: نعم يا رسول الله ﷺ! قال قولوا: إن شاء الله قال القوم: إن شاء الله. وفيه عن أبي هريرة قال قلنا يا رسول الله ﷺ! حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة من ذهب ولبنة من فضة وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت وملاطها المسك وترابها الزعفران من يدخلها ينعم لا ييأس ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه. وفيه عن أبي سعيد الخدري عنه ﷺ قال: لشبر في الجنة خير من الدنيا وما فيها. وفيه عن سعد بن أبي وقاص عنه ﷺ: ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا أساوره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(٣) تفسير البرهان ١: ٦٩ - الإمام الحسن العسكري عن جدّه علي بن الحسين ﷺ في حديث طويل حول هذه الآيات: «بشرهم أن لهم جنات»: بساتين - تجري من تحتها الأنهار: من تحت أشجارها ومسكنها ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا﴾ من تلك الجنان ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ من ثمارها ﴿رِزْقًا﴾: طعاماً يؤتون به ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥] في الدنيا فأسماؤه =

وكما يجدون فيما يُرزقون تشابهاً لما رزقوا من صالحات هي ثمرات الإيمان يوم الدنيا، فالיום يرزقونها جزاءً وفاقاً، مما تزيدهم رضى سابعة أنها مما قدمت أيديهم جزاءً ومزيداً من فضل الله تعالى .

وحيث إن لأهل الجنة من كل الثمرات: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (١) ولأن ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ (٢) ف﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ لا يعني ما تحدّه الحياة الدنيا من ثمرات، بل هم في مثلث الثمرات غير المحدودات ولا المحدّدات، بمختلف الألوان والشهيات والطعومات .

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ إسباغ غريزة الجنس بكلّ نزاهة وطهارة، بجنب ما لهم من ثمرات في جنات، وترى أن هناك للرجال أزواجاً وليس للنساء؟ أقول: «هم» في «لهم» هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات رجالاً ونساءً، فلكلّ أزواج دون اختصاص بالرجال، مهما لا تجد آية تصارح بما للنساء من أزواج كما للرجال هناك أزواج من الحور العين ومن أزواجهم المؤمنات: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٣) فإن ذلك لا يعني حرمانهن لا سيّما إذا متن باكرات وإنما استحياءً عن ذكرى شهوة النساء وإحياء لعفافهن، وكما

= كأسماء ما في الدنيا من تفاح وسفرجل ورمان وكذا وكذا وإن كان ما هناك مخالفاً لما في الدنيا فإنه في غاية الطيب، وأنه لا يستحيل إلى ما يستحيل إليه ثمار الدنيا من عذرة وسائر المكروهات ومن صفراء وسوداء ودم، بل ما يتولد من مأكلهم إلا العرق الذي يجري من أعضائهم أطيب من رائحة المسك وأتوا بذلك الرزق من الثمار من تلك البساتين متشابهاً بعضه بعضاً بأنها خيار لا رذل فيها وبأن كل صنف منها في غاية الطيب واللذة، ليس كثمار الدنيا التي بعضها في وبعضها متجاوز لحد النضج والإدراك لحدّ الفساد من حموضة ومرارة وسائر ضروب المكاره، ومتشابهها أيضاً متفقات الألوان مختلفات الطعوم .

(١) سورة محمد، الآية: ١٥ .

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧١ .

(٣) سورة الانشقاق، الآية: ٩ .

لا تجد لهن ذكراً بأسمائهن في القرآن اللهم إلا مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ ذوداً عنها ما مسوا من كرامتها .

ولأن ﴿وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾^(١) نتأكد أن هناك للنساء المؤمنات ما للرجال المؤمنين من مشتريات، وشهوة الجنس تحتل القمة فلتكن لهن كما لهم سواء .

إنهن سوف يتزوجن هناك برجال كما يشتهين، برجالهن إن كانوا من أهل الجنة أو بسواهم إن متن باكرات، وهن أجمل وأطرى من الحور العين، فلهن منازل عند أزواجهن فوقهن^(٢) وإن كن أقل عدداً^(٣) .

وحتى إذا يُعنى من «لهم» الرجال فقط ف ﴿أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ تشمل النساء المؤمنات أبقاراً وثيبات كما تشمل الحور العين .

و«مطهرة» تعني الطهارة بكل زواياها النسائية: مطهرات من الزنى ومن النظر إلى غير رجالهن: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْهِنَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾^(٤) ومن أية مكروهة مرغوبة عنه فيهن مثل مختلف الدماء، حيضاً أم

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧١ .

(٢) في من لا يحضره الفقيه قال الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا وهن أجمل من الحور العين، وفي روضة الكافي عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: هن صوالح المؤمنات العارفات، أقول راجع آيات قاصرات الطرف والخيرات الحسان ومقصورات في الخيام من سورة «الرحمن» ج ٢٧ ص ٥١ .

(٣) الدر المنثور ١: ٣٩ - أخرج ابن السكن وابن عساكر عن حاطب بن أبي بلتعة سمعت رسول الله ﷺ يقول: يزوج المؤمن في الجنة ثنتين وسبعين زوجة من نساء الآخرة وثلثين من نساء الدنيا .

وفيه عن أبي هريرة قيل يا رسول الله ﷺ: هل نصل إلى نساتنا في الجنة؟ فقال: إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء .

أقول هذا الاختلاف حسب اختلاف الدرجات والشهيات .

(٤) سورة الرحمن، الآية: ٥٦ .

سواه^(١) كذلك ونكاحهن «دحماً دحماً لا مني ولا منية»^(٢) فلا يصحب أية قذارة أو صعوبة أو خلافات أو حسادات: «مطهرات من أنواع الأقدار والمكاره، مطهرات من الحيض والنفاس، لا ولآجات ولا خراجات ولا دخالات ولا ختالات ولا متغايرات ولا لأزواجهن فركات ولا صحابات ولا غيَّابات ولا فحاشات ومن كل العيوب والمكاره بريات»^(٣).

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: في هذه الجنات والثمرات والأزواج المطهرة وفي كل ما يشتهون: ﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾^(٤) ^(٥).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(٦)

قد توحى الآية نفسها أن الله تعالى ضرب مثلاً قبلها ببعوضة أو ما فوقها فقال الذين كفروا ما قالوه، كما علم الذين آمنوا ما علموه، فكيف لم يذكر المثل قبلها وإنما جاء الجواب؟.

أقول: هذه الآية مع ما تحمل من مثل البعوضة، فيها الإجابة عما ربما

(١) الدر المنثور ١: ٣٨ - أخرج الحاكم وابن مردويه وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في الآية قال: من الحيض والغائط والنخامة والبزاق - أقول هذا هو من باب الجري والتطبيق تفسيراً ببعض المصاديق.

(٢) الدر المنثور ١: ٤٠ عن أبي أمامة الباهلي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: هل تتناكح أهل الجنة؟ فقال: دحماً... .

وفيه أيضاً أنه سأله ﷺ نفس السؤال فقال ﷺ: نعم بفرج لا يمل وذكر لا ينثني وشهوة لا تنقطع دحماً دحماً.

(٣) تفسير البرهان ١: ٦٩ عن الإمام علي بن الحسين ﷺ.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٢.

(٥) بحثنا عن موقع الخلود في الجنة والنار وحدوده في الجزء الثلاثين عند البعض من آياته ك﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابٌ﴾ [النبا: ٢٣] ص ٤٠ - ٥٠ فراجع وكذلك في الأسرى وغيرها.

قيل عن الأمثال السالفة^(١) أو يقال، بأن ضرب المثل بصغير أو كبير إنما هو لإثبات حق ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾^(٢) والكون بصغيره وكبيره لله ومن خلق الله، وله أن يمثل بما يشاء، حيث العبرة في المثل ليست في الحجم والكم، وإنما في الكيف والتدليل كأدوات للتنوير.

والبعوضة حشرة مضرّة من فصيلة البعوضيات ورتبة ذوات الجناحين، تعيش صغارها في المستنقعات، وتنقل بلدغتها شتى الجرثومات، فإذا الله يضرب بها مثلاً لمعجزة الحياة فلا استحياء في مثلها، حيث الحياة في الفيلة بأعضائها كالحياة في البعوضة فما فوقها في الصغر، بل وللبعوضة ما للفيلة وزيادة عضوين آخرين^(٣).

ثم ضرب المثل بالصغار ينه كبار المتعنتين أنهم صغار صغار بجنب الله حتى في خلق بعوضة، حتى وألتهم التي ألتهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾^(٤).

وهكذا تكون دوماً حال الأمثال التي يضربها الله، موالية لما يهدفه من

(١) حيث سبق المثل هنا بالذي استوقد ناراً أو كصيب من السماء، كما سبق في العهد المكي أدنى منه كالعنكبوت والذباب، فاتخذ جماعة من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين من هذه الأمثال منفذاً للتشكيك في صدق الوحي بحجة أن فيها سخرية منهم لا تصدر عن الله، فهنا الإجابة عن كل ذلك بصيغة مختصرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ [البقرة: ٢٦].

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

(٣) البرهان ١: ٧٢ نقلاً عن أبي علي الطبرسي قال وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: إنما ضرب الله المثل بالبعوضة لأن البعوضة على صغر حجمها خلق الله فيها جميع ما خلق في الفيل مع كبره وزيادة عضوين آخرين فأراد الله أن ينه بذلك المؤمنين على لطف خلقه وعجيب صنعته. . أقول: ومن عجائب البعوضة أنه يضرب بخرطومه على الفيل والجاموس كما يضرب الرجل إصبعه في الخييص من فورة السم الذي عبى على رأس خرطومه!

(٤) سورة الحج، الآية: ٧٣.

أهداف: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(١) . . . ثم الحالة المؤمنة وجاه هذه الأمثال، فيما إذا كانت مريبة كبعوضة فما فوقها في الصغر - هي: العلم أنه الحق من ربهم فإيمانهم بالله يدفعهم في مزال الأقدام أن يتلقوا كل ما يصدر من الله بكل قبول وتصديق، فمهما جهلوا حكمته ومغزاه، فالله حكيم عليم. طالما المقالة الكافرة سؤال استكبار واستنكار، سؤال المقطوع الصلة عن الله المحجوب عن نور الله ومن لا يرجو الله وقاراً: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾. كأنه باطل من ربهم ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾: مثلاً يضل فكيف يضربها الله: اعتراضاً على كلام الله، غافلين أو متجاهلين أنه ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(٢).
وقد تكون ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ من أوسط الفاسقين، بعد ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ ولا تكون من كبرائهم الفاسقين إذ لا يرون في هذا المثل وجهة حقّ وهدى.

فجواب الآخرين - فقط - : ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ وللاولين زيادة ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾. . . والفسق هو الخروج عما يحق من كنّ ووقاية - كما يقال: فسقت التمرة: إذا خرجت عن قشرها، فالفاسقون هم - الخارجون عن قشر العبودية.

وترى الفاسقون كل الفاسقين هم المضللون بأمثال هذه الأمثال وكثيرهم مؤمنون فاسقون. . . وقليل هم الذين لا يفسقون؟
أقول: إنهم فاسقون خصوصاً كما عرفهم الله بفسق مطلق لا مطلق الفسق؛

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٥.

(٢) هنا الوجهان مقبولان حيث تتحملهما الآية لفظاً ومعنى أن يهدي به كثيراً إما من كلامهم تنمة الاعتراض أو من كلام الله نقضاً للاعتراض، وكما ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] حلّ نهائي لسؤالهم.

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢١)

وفي أخرى بالكفر ومرض القلب الشامل للمشركين وأهل الكتاب والمنافقين: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ (١) وهو مثال الزبانية التسعة عشر.

إن ثالوث الفساد هذا هو المجال لذلك الضلال: نقضاً لعهد الله - قطعاً لوصل الله، وإفساداً في أرض الله، ويا له من ثالوث منحوس! يجعل من كل هدى ضلالة ومن كل نور ظلمة.

ومثلث الفساد هذا يقطع بزواياها كل صلة بالله وعباد الله: نقضاً لعهد الله بعد ميثاقه، من عهد توحيد العبودية فطرياً وعقلياً، ومن ثم رسالياً ورسولياً، وثم عملياً، التي تجمعها صيغة واحدة: «عبادة الشيطان»: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢١) وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢١﴾ (٢): عهد ثنائي سلباً وإيجاباً هو أصل العهود! إنهم ينقضون عهد الله - أي عهد - من بعد ميثاقه بوثق العقل والفطرة ووثاق النبوات، فالفاسقون: الخارجون عن حدود العبودية هم حياتهم نقض لمواثيق الله - بكل زواياها الثلاث وحواياها، ونقض عهد الله من أعظم الفسق: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (٣). فإنهم لا لب لهم إنسانياً ﴿إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ... ﴿٢١﴾ (٤).

(١) سورة المدثر، الآية: ٣١.

(٢) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٠٢.

(٤) سورة الرعد، الآيات: ١٩ - ٢١.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ فقد أمر الله بصِلات كثيرة: عقيدية وعملية، فردية وجماعية اماهيه، فإذا قطعت هذه الصِلات ونُقِض عهد الله عمّت فوضى الفساد في الأرض، فإن إصلاحها على ضوء الحفاظ على عهد الله، وإيصال ما أمر الله في جناحي الرباطين: بينك وبين الله وبين عباد الله . . . ونرى آية النقض والقطع تربط بينهما هنا وفي أخرى مما يدل أن كل نقض لعهد من عهود الله يسبب قطعاً لما وصل الله وأمر به أن يوصل، فشرعية الله شرعية وصل المفاصل التي تفصل الانسانية عن صالح الحياة، ابتداء بوصول الحياة البيتية، إلى وصل الأرحام، إلى المجتمع الإسلامي الكبير وإلى كافة المجتمعات وصلاً عقيدياً - أخلاقياً - مادياً - سياسياً - اقتصادياً وعسكرياً أم ماذا، وكما تأمر به آية المرابطة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (١).

ثم وقطع عهد الله، وفصل وصل الله يسبب كلّ فساد في أرض الله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾.

إذ خسروا رأس مال الاهتداء في متاجر الضلالة والهدى، فالمثل الإلهي الذي من شأنه شفاء ورحمة لا يزيدهم إلا خساراً.

ولأن الفسوق دركات فالضلالة الناتجة عنه أيضاً دركات طبقاً عن طبق فالفسوق المروق عن مطلق الطاعة ضلال مطلق مطبق، والفسوق عن الطاعة المطلقة وهو مطلق الضلال غير مطبق، فالحياد عن منهج الله ومحادة حكم الله والحداد عن حدود الله هو الفساد الشامل للنفوس والأحوال، التي تُردي في الأحوال، ومن ثم فحق لهم أن يضلهم الله بما يطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهَمٌّ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢).

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨.

ثم و«مثلاً ما»^(١) يشمل كافة الأمثال القرآنية، ومثلاً منها: «البعوضة» وهي أضعف ما يعرف عامياً من خلق الله «فَمَا فَوْقَهَا» في الضعف والخساسة، الذي يعرفه البعض بعيون مجردة أو مسلحة^(٢) ولكن الله إذ يواجه الناس أجمعين يضرب أمثالاً يعرف الناس أجمعون: نملاً بعوضة - ذباباً - عنكبوتاً - نحلاً: وهي على صغرها وخستها حجماً، عظيمة في خصتها خلقة وخاصتها مثلاً: فلماذا الله يستحيي أن يضرب مثلاً ما: بعوضة فما فوقها؟ وما الأمثال في القرآن إلا مظاهر نعيشها، تدليلاً على حقائق نجهلها.

ويا لمثل البعوضة فما فوقها من ملابس هامة فيزيولوجياً وحيوياً ودلالة على ما يُرام منها هدىً ورحمة للمؤمنين وتذكرة للكافرين ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰسِقِينَ﴾!

فلا ضلال في المثل، ولا من الله الذي يضربه لتقريب الحق، وإنما في ﴿الْفٰسِقِينَ﴾ حيث يبدلون نعمة الله كفراً، فليس من الله دفع إلى ضلال، اللهم إلا تركاً لمن يهرع إلى ضلال، ثم ختماً على قلبه فيزيد ضلالاً على ضلال: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللهُ فَكَأَ هَادِي لَهٗ﴾^(٣) إن في تركه فلا موفق إلا الله، أو في ختمه فلا راد لأمر الله.

(١) ﴿مَا﴾ هنا ليست زائدة. وإنما تعني الإجمال الشامل لكلّ مثل، كما يقال: شيئاً ما - أمراً ما - رجلاً ما - شخصاً ما، ف ﴿مَا﴾ تؤكد التنكير الإجمال فيما قبله وتعمّه. ف ﴿بَعُوْضَةً﴾ [البقرة: ٢٦] منصوب على البدلية من ﴿مَثَلًا مَا﴾ [البقرة: ٢٦] دون حاجة إلى تكلفات أخرى تأتي عنها كلام الله!

(٢) لأن المقام هنا الإجابة عما يسأل عن صغر المثل ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] هنا تعني: ما فوقها في الصغر والخساسة، حيث الفوقية تختلف مواردها وكما يقال: فلان فوق فلان في الفقر - في اللؤم - في الفسق أو في الصغر، حيث الفوقية فيها هو الشدة في كلٍّ منها. . . ومع ذلك كله ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ في الآية تتحمل الفوقين: أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها في الصغر كالنملة وما فوقها، أو في الكبير كالنحلة وما فوقها.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٦.

كلام حول الضلال والهدى:

نرى عشرات من آيات الله البيّنات تنسب الإضلال إلى الله كما تنسب إليه الهدى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١) ولكنما المشية الإلهية، الحكمة العادلة، لا تتعلق بإضلال المهتدين، ولا الحائرين المتحرّين عن الهدى، فلا نجد آية تحمل من إضلال الله من شيء إلا بالنسبة للزائغين: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾^(٢) الظالمين: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾^(٣) والفاسقين: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ والكافرين: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾^(٤) أو كل مسرف مرتاب: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾^(٥): إضلال بما زلّوا وضلوا من قبل، لا بمعنى الدفع إلى الضلال قبل بيان الهدى، وإنما تركاً لهم يفعلون ما يريدون بعد الإياس من هداهم: ﴿فَنذُرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٦) تعبيراً عن تركه لهم بإضلالهم إذ لم يحملهم على الهدى تسييراً: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَ هَادِي لَهٗ وَيَذُرَّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٧) ﴿وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾^(٨).

ثم وبما يمدّهم في أعمار وأموال وبنين: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٩) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١٠) وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ^(١٠).

- | | |
|------------------------------|---------------------------------------|
| (١) سورة فاطر، الآية: ٨. | (٦) سورة يونس، الآية: ١١. |
| (٢) سورة الصف، الآية: ٥. | (٧) سورة الأعراف، الآية: ١٨٦. |
| (٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧. | (٨) سورة التوبة، الآية: ٤٥. |
| (٤) سورة غافر، الآية: ٧٤. | (٩) سورة البقرة، الآية: ١٥. |
| (٥) سورة غافر، الآية: ٣٤. | (١٠) سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٢، ١٨٣. |